المقتبس

صناعة النظم والإنشاء

كان الوليد ابو عبادة البحتري [1] معاصراً لحبيب بن اوس المعروف بابي تمام [2] وهما من اعيان شعراء الكلام. وكلاهما طائيان غير ان البحتري ولد بعد ذلك ببضعة عشر عاماً فما ترعرع ونبغت فيه علائم النبوغ حتى كان ابو تمام في اوج مجده وبحبوحة الشهرة فتعلق به وتخرج عليه حتى اذا اول شعره وسار ذكره قال ابو تمام «ان شعر هذا الغلام لقد نعى الي نفسي فما اجتمع في حي شاعران مشهوران الا مات اكبرهما» وقد صدقت نبوأته هذه فان ابا تمام لم يعش بعد قوله هذا اكثر من عام واحد وقد مات فجأة وهو دون الاربعين ولو عمر حتى اكتهل كالمتنبي او حتى شاخ كالبحتري لأتى بالآيات المعجزات ولأطال الناس في كونه امير الشعر قديماً وحديثاً

---

[1] ولد في منبج سنة ٢٠٦ للهجرة وتوفي بها سنة ٢٨٤ وهو الذي سئل عنه ابو تمام فقال «جيده خير من جيدي ورديئه خير من رديئي» وسئل ابو العلاء المعري من اشعر الثلاثة ابو تمام ام البحتري ام المتنبي فقال «المتنبي وابو تمام حكيمان وانما الشاعر البحتري»

[2] ولد في قرية جاسم من ناحية الجيدور في حوران سنة ١٩٠ للهجرة وتوفي في الموصل سنة ٢٢٨ في اسبوع الاول وهو احد الثلاثة الذين لا تقدمهم من الشعراء المحدثين والاثنان الآخران المتنبي والبحتري وقيل سئل ابن الزيات وزير المعتصم من اشعر الناس؟ فقال ابو تمام حيث يقول

وما ابالي وخير القول اصدقه حقنت لي ماء وجهي او حقنت دمي

وكان البحتري قد سأل يوماً ابا تمام ان يبين له الوجهة التي ينحيها في نظمه والوتيرة التي يجري عليها توصلاً الى الاجادة والابداع فقال له

« يا ابا عبادة تخير الاوقات وانت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم ان العادة جرت في الاوقات ان يقصد الانسان لتأليف شيء او حفظه وقت السحر اذ تكون النفس قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم . وان اردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً واكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الاشواق ولوعة الفراق فاذا اخذت في مديح سيد ذي اياد فاشهر مناقبه واظهر مناسبه وابن معالمه وشرف مقامه ونضد المعاني واحذر المجهول منها واياك ان تشين شعرك بالالفاظ الرديئة . وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجساد . واذا عارضك الضجر فارح نفسك ولا تعمل شعرك الا وانت فارغ القلب واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة الى حسن نظمه فان الشهوة نعم المعين وجملة الحال ان تقيس شعرك وتعتبره بما سلف من شعر الماضين فما استحسن العلماء فاقصده وما نبذوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله »

قال البحتري « فأعملت نفسي بما قال فجاد شعري وطار ذكري ووقفت الى ما اروم »

اما الحاتمي [1] فقد اختار الليل للنظم وحوك الكلام ذاهباً مذهب (جورج صاند) الكاتبة الفرنساوية التي كانت تبدأ بكتابتها عند منتصف الليل وتنتهي منها الساعة السادسة ثم تنام الى الحادية عشرة على ما وصفه المترجمون لها . وحجة الحاتمي في ذلك ان في الليل تجم الاذهان وتنقطع الاشغال ويصح النظر وتؤلف الحكمة ويتسع مجال الفكر وتجتمع الخواطر . وعندنا انه مصيب واكثر رجال السياسة والتدبير واهل العلم والخيال وارباب الاختراع والابداع يفضلون الليل على النهار ويخصصونه لمهم من الاعمال والصعب

---

[1] هو ابو عبد الله محمد بن الحسن بن المظفر الكاتب اللغوي البغدادي المعروف بالحاتمي كان معاصراً المتنبي وقد اجتمع به في بغداد فساءه ما رآه فيه من صلف وترفع واعجاب فبادره بكلام افحمه واحرجه حتى نهض المتنبي من مجلسه مغضباً مهموماً ثم اسرع الرحلة من العراق خجلاً وقد آلى على نفسه لا يعود اليها فانشأ الحاتمي الرسالة الحاتمية المشهورة شارحاً فيها ما جرى بينه وبين المتنبي من اظهار سرقاته وابانة عيوب شعره فدلت على غزارة مادته وتوفر اطلاعه وله غيرها كتاب اسمه حلية الادب في مجلدين : توفي سنة ٣٨٨ للهجرة وقد اناف على السبعين

من شؤونهم والتفكير فيما يصلح من امورهم وينبه من اقدارهم وبه عليا انشأ المؤلفون الكتب وحبروا الرسائل وولدوا المعاني الحسان واودعوها اسلاك كلامهم تباهي النجوم ضياء والدر نظاما والروض زخرفا وجمالا — وان كان ذلك مدعاة لاعنات اجسامهم واخترام المحارم فان السهر ولا جرم مدعاة السقم ومدرجة الالام وقد طالما عبثت بالعقول قبل الاجساد فاوصل اليها الفساد — فالشاعر الماهر والكاتب الحاذق من اذا خلا الى حجرته وقد سدل الليل ستاره وسكنت ضوضاء الناس واستولت سنة النوم على اجفانهم نشط الى ما هو ميسر له من الامر وباشر عمله بعد امعان الفكرة واطالة الروية واستيحاء السليقة فيستمد من القريحة عفوها ويمليها غير مستند الى معنى اخيه يتلاعب به او قول لبعض السلف ينتحله موقنا ان الناس كافة قيمون له منتقدون لاقواله منقرعون لتزييف كلامه وتفنيد نظامه ووزن معانيه والفاظه بميزان التعنت عليه [illegible] به الطالب حجة يتذرع بها الى تنقيصه وتسويئه والغض من فضله ثم يكتب وهذا التحوط نصب عينيه ماثل لديه فلا يجود الا من ماله ولا يسبك الا من معدنه بلا اغتصاب ولا استكراه حتى اذا فرغ مما حبر تربص الى ان تهدأ سورة اعجابه فيما راق له من مبتكرات معانيه ومسبوكات قوافيه — وقد يحتمل ان يكون تربصه هذا يوما او اياما — ثم يعود بعد ذلك — وقد سكنت القريحة وخلا الذهن وصح التأمل — فيراجع ما كتب مراجعة منتقد ذاته ثم على نفسه رقيب على عمله فان وجد محلا للاصلاح اتاه او وجها للتهذيب والتنقيح مارسه وعاناه متخيرا اشرف الالفاظ واخفها واكثرها قربا الى الفهم وتداولا على الالسنة يدمجها في تضاعيف سطوره على منوال خاص واسلوب غريب يعرف به ويظهر ملكته في اقتباس كلامه بحيث ينسبه القارئ العارف به اليه بمجرد تلاوته ولو لم يكن معنونا باسمه ثم يعرضه على من يثق به من جهابذة الاقلام لعله يرى فيه عورة فيسترها او خللا فيسده فمن سلك هذا المسلك الجدد من مجيدي الشعراء والكتاب امن في غالب منشآته العثار وحق له الاشتهار

تلك نصيحة اوصي بها واحرض على الجري [illegible] كما [illegible] في كل منظوماتنا حتى اليوم على ما يعلمه المتطلع منه اليه فانا كنا ننظم في ليلتنا القصائد المطولات ثم نبعث بها في الصبح الى عالم النشر دون معاودة نظر او تثبت وما ذلك الا اثر من آثار ضيق العطن المنبعث عن هزال الجسم وسوء الهضم اذ هما منبعا كل [illegible] فانهما آفة الاذهان وعلة النحس والمرارة والشقاء في الانسان وما مصدرهما في قدرته ان

يعيش بعقله وعمله الا الامعان في السهر وعدم الاعتدال في الدراسة منذ الصغر فليتق الله الكاتبون في احلامهم ان لم [illegible] فيما اتيتهم به عظة وعبرة ان كانوا ممن يتدبرون

وهنا — والشيء بالشيء يذكر — نأتي على كلام لابي عثمان الجاحظ (١) مما لا يخرج عما نحن في شأنه وتتوفر فيه الفائدة لمن رزقوا حظ الكتابة ولم يهتدوا الى قانون يقوي فيهم ملكة الانشاء ويعينهم على الاجادة في الصناعة لان ذلك اهم ما يحتاجه المتأدبون هذه الايام بعد ان قوضت فوضى الاقلام اركان البلاغة وشوهت ديباجة البيان واضاعت سر التأنق في الترسل حتى زالت عنه مسحة الجمال الا في عدد نزر ممن اوتوا نصيبهم من سلامة الذوق والعلم واقصدوا الدراية في صناعتهم هذه الشريفة الى محجة الكمال فرسخت في اذهانهم قواعد التحرير والتعبير واستحكمت في صدورهم اساليب التفنن بصوغ المعنى الصحيح في قالب اللفظ الفصيح حتى استقامت لهجتهم ووضح منهاجهم وعذب بيانهم فسجعوا على منوال خاص بهم تشرب به القلوب وتستعذبه الاذواق وتعشقه النفوس على ما فيه من السهولة والانسجام ومتانة التراكيب : قال الجاحظ

« يقول جهابذة الالفاظ ونقاد المعاني واساطين البيان · المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في اذهانهم المتخلجة في نفوسهم المتصلة بخواطرهم والحادثة عن افكارهم مستورة خفية وبعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة لا يعرف الانسان ضمير صاحبه ولا حاجة اخيه وخليطه ولا معنى شريكه والمعاون على امره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه الا بغيره وانما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها واخبارهم عنها واستعمالهم اياها · وهذه الخصال هي التي تدنيها الى الفهم وتجليها للعقل وتجعل الخفي منها ظاهراً والغائب شاهداً والبعيد قريباً · وهي التي تلخص الملتبس وتحل المنعقد وتجعل المهمل مقيداً والمقيد مطلقاً والوحشي مألوفاً وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الاشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون ظهور المعنى · وكلما كانت الدلالة اوضح

---

(١) هو ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي البصري الكاتب العالم المشهور صاحب التصانيف العديدة في الادب · لقب بالجاحظ لانه كان جاحظ العينين اي بارزهما · وهو مع ذلك مشوه الخلقة قبيح المنظر حتى قال فيه الشاعر

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ما كان الا دون قبح الجاحظ

مات مفلوجاً ببغداد سنة ٢٥٥ للهجرة وقد تجاوز التسعين · ومن افضل مؤلفاته كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين وله شعر قليل مقبول

وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور كانت أنفع وأنجع في البيان والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله يمدحه بكتابه ويدعو إليه ويحث عليه بذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم

والبيان اسم لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى وهتك لك حجب الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائناً ما كان ومن أي جنس كان . والألفاظ هي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة على حالاتها في التعبير وعلى ما يكون من استواء [illegible] ألفاظها وطرافتها مع التناسب [illegible] بين تلك المعاني وما تستخدمه لإبرازها من الألفاظ سهل إشرابها العقول وتجليها على المخيلات ووصولها إلى صميم القلب والعكس بالعكس » . فمن شاء أن يكون حديثاً تقرع الآذان نبراته أو منشئاً تسحر الألباب نفثاته فليلبس المعنى الدقيق اللفظ الرشيق الذي لا ينقص عن معناه ولا يزيد ويجتنب الأصول ويحذف الفضول ويجتنب الحشو ويطنب حيث يستحب الإطناب ويوجز حيث لا يستكره الإيجاز : كل ذلك يفتقر إلى رأي حصيف وفكر وقاد وخاطر جريء وذهن ذكي وذوق يحسن الاختيار وبديهة لا تعرف التلكؤ وحافظة تكتنز من المواد ما يستعان به على ركوب هذا المركب الوعر تقترن إلى ضلاعة في العلوم وتبحر في الأدب ومطالعة في آثار أئمة أهل البيان ممن نبغوا فدرجوا من قبل واستقل عليهم الزمان ولقد قال ابن داود [1] « رأس الإنشاء الطبع وعموده الدربة وجناحاه رواية الكلام وحليه الإعراب وبهاؤه تخير اللفظ » وقال ابن المعتز [2] « العالم يكسو المعاني وشي الكلام في قلبه ثم يبديها بألفاظ كواس في أحسن زينة والجاهل يستعجل بإظهار المعاني قبل العناية بتزيين معارضها واستكمال محاسنها »

ولما سئل جعفر البرمكي وزير الرشيد المشهور عن البيان قال « هو أن يحيط كلامك بمعناك ويكشف عن مغزاك وتخرجه عن الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة ويكون سليماً من التكلف بعيداً من الصنعة بريئاً من التعقيد غنياً عن التأويل مع نزاهته عن الركة وترفعه عن اللغو وابتذال الكلام . فحظه مراتب العز وصفاء رونق القبول وحسنته ذلك الملكة تمثلت في المفاصل عذوبته وفي الأفكار رقته وفي العقول حدته وما أحسن

---

[1] هو الإمام المحدث المعروف بالسجستاني ولد سنة ٢٠٢ للهجرة ومات في البصرة سنة ٢٧٥

[2] هو عبد الله ابن المعتز أحد الخلفاء العباسيين المشهود له بجودة النظم والنثر وسعة العلم والأدب ولد سنة ٢٤٩ وقتل سنة ٢٩٦ بعد أن تولى الخلافة يوماً واحداً

ما قال مالك اديب «الكلام ما اتصلت لحمة الفاظه بسدى معانيه فخرج مفوفاً منيراً وموشى محبراً وان من البيان لسحراً»

وقد قال غيره «البليغ من يحوك الكلام على حسب الاماني ويخيط الالفاظ على قدود المعاني» ومن اجل ما وصفت به البلاغة قول احد العلويين «البلاغة ايصال المعنى الى القلب بحسن صورة من اللفظ» وهو يضارع قول بعض الاعراب «البلاغة ايجاز في غير عجز واطناب في غير سفسفة»

هذه هي الضلالة التي يحسبها الناس اليوم لعقة من عسيلة ولقمة من ثريد فلا يكاد الصبي منهم يقرأ الاجرومية او شيئاً من شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك ويلقف بعض ما وضعه الخليل بن احمد في دائرة البحور من الاعاريض وقيده اسماعيل الجوهري على بعض صفحات الصحاح من حوشي الالفاظ حتى يتربع في دست التصنيف والتأليف او يقف على منبر الانشاء الخطيب او يسمي نفسه بالشاعر الساحر فيملأ الدنيا صخباً وهو يظنه عطراً وبانا ورنداً واقحواناً ولله الامر من قبل ومن بعد وما هو بغافل عما يهذرون

«سليم عنحوري»

* * *

هل اللغة العربية حية[1]

وضع المسيو اكوتي قطان احد اعضاء المجمع العلمي القرطاجني في تونس محاضرة رد فيها على من قال ان اللغة العربية ليست من اللغات الحية وانها كانت كذلك وقد اصبحت اليوم من اللغات الميتة فاحدث كلام من اصدر هذا الحكم تأثيراً في نفوس المسلمين لان له علاقة باعز الاوضاع عندهم واقدسها في نظرهم ونعني بها اللغة وقد ردت بعض الصحف الاسلامية على من رموا العربية بالعقم رداً لم تورد فيه برهاناً بل جعلته خيالياً وتجاوزت فيه حد المناقشة الادبية ورمت القائل وهو اوربي بالطعن بانه لا يعرف ما في العربية من المزايا والخصائص وقالت انى يتأتى للغريب عنها ان يفهمها حق فهمها بيد ان صاحب هذه المحاضرة دافع عن العربية دفاعاً علمياً ورد مزاعم من يرمونها

---

[1] عربنا هذه الرسالة في الشهر الذي صدرت فيه من العام الماضي ففقدت اصولها من المطبعة في جملة المقالات التي ضاعت عندما أقفلت مطبعة المقتبس وعطلت هذه المجلة والجريدة وها نحن ننشرها ثانية حرصاً على فائدتها فبها عذرنا لصاحبها